

غونتر غراس

في علاقة الأدب بالأخلاق

حسين الموزاني

لا شك أن ترجمة نص أدبي ألماني من نصوص الحداثة إلى اللغة العربية أمر شاق فعلاً، لأن هناك فروقاً واختلافات عديدة تتعلق بتاريخ اللغتين وجغرافيتهما وموسيقاهما وإيقاع جملتهما. وفي حالة غونتر غراس (1927 - 2015) فإننا نلمس ملمحاً آخر لهذه الصعوبة يكمن في أنه استحدث أسلوباً جديداً في القصة، يستند إلى ما يُسمى روايات الفروسية التي نعرفها من خلال الكاتب الإسباني الساخر سيرفانتس (ثيربانتس) أو الألماني هانس ياكوب غرملسهاوزن. لكنه عالج هذه المرة وضعا لم يكن الاقتراب منه سهلاً آنذاك، أي في عام 1959 عندما صدرت الرواية الأولى لغونتر غراس التي اشتهرت باسم «طبل الصفيح»، وهو تاريخ ألمانيا، السياسي، بالدرجة الأولى، إبان الحقبة النازية وما بعدها. وكان غراس يشكو من تعرض اللغة الألمانية للدمار بسبب الإسقاطات القومية النازية عليها واعتبارها

صرح غابرييل غارسيا ماركيز بأن روايته «مئة عام من العزلة» ما كان لها أن ترى النور لولا رواية «طبل الصفيح»

لغة عرقية صافية، بالإضافة إلى حذر الكتاب الألمان ما بعد الحرب من استخدام مفردات مثل الأمة الألمانية، والعرق، والقومية، ونقاء اللغة، والنصر العسكري، وما إلى ذلك من العبارات التي كانت متداولة بكثرة في الحقبة النازية. وباستثناء النصوص التجريبية العنيفة للكاتب أرنو شميدت، المجايل لغراس، لم نر، على حد معرفتنا، رواية كتبت بهذا القدر من الانغلاق والتعقيد مثل رواية «طبل الصفيح» بعد الحرب العالمية الثانية. وتطلبت عملية تفكيك الغازها والإمساك بإيقاعها الموسيقي المنتظم الذي التزم به الكاتب منذ بداية الرواية حتى آخر عبارة فيها جهوداً كبيرة وأعواماً طويلة. وكان الهاجس الأساسي بالطبع تقديم عمل فني متكامل لروائي ذاع صيته في أرجاء العالم برمته، لدرجة أن الكاتب الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز صرح ذات مرة بأن روايته «مئة عام من العزلة» ما كان لها أن ترى النور لولا رواية «طبل الصفيح».

غراس يعد كاتباً متعدد المواهب، فهو روائي وقاص وشاعر ومؤلف مسرحي ورسام ونحات وخطيب سياسي. رافق المستشار الألماني فيلي برياندت في حملاته الانتخابية منذ مطلع الستينيات. وكان غراس قد قرأ أول فصلين من روايته هذه أصم «جماعة 47» الشهيرة التي ضمت كبار الكتاب الألمان في حقبة

ما بعد الحرب، ومنهم غونتر آيش ومارتين فالزر وهابنرش بول وإنغبورغ باخمان وهانس ماغنوس أنتسنسبيرغر... وغونتر غراس بالطبع الذي فاز بجائزة المجموعة عام 1958 بعد تلك القراءة. وأدرك غراس ساعتها أن ألمانيا كانت في أمس الحاجة إلى مراجعة الماضي القومي وتعامل السلطات النازية مع الأدباء، فضلاً عن تاهيل ألمانيا على الصعيد الثقافي، وخاصة بعد ذلك الحكم المطلق الذي أطلقه الفيلسوف الألماني تيودور أدورنو، وهو أن «كتابة الشعر تعتبر عملاً بربرياً بعد محرقة أوشفيتس». فكان الأدباء الألمان الذين شهدوا الحرب العالمية الثانية أو اشتروا فيها جبراً أو طواعية، يحاولون التخلص من تهمة التواطؤ مع النازيين وتأييد سياسة الحرب والتشريد والإبادة الجماعية والتخثر للأدب والأدباء لأسباب عرقية وقومية. وكان البعض يسخر من كتاب ما بعد الحرب هؤلاء ويصفهم بأدباء «الأنقاض» وهي عبارة تحاكي محاولات ملايين النساء الألمانيات في إعادة بناء بيوتهن التي دمرتها الحرب. وقد سألت ذات مرة غونتر غراس شخصياً عن مصطلح «ساعة الصفر»، فقال إنه يشعر بالامتناع من هذا المصطلح، إذ ليس هناك ساعة صفر بمعنى البداية الجديدة، بل إن هناك محاولة حثيثة لتكملة ما حدث قبل الحرب العالمية الثانية.

ويتسم أدب غراس، وربما على العكس من تخطيطاته ورسومه التي لم تبلغ المستوى الذي بلغه نثره المتميز، بقوة العبارة وإحالاتها التاريخية والفكرية والسياسية العديدة؛ غير أن الصعوبة بحذ ذاتها لا يجوز أن تكون حائلاً دون نقل الإبداع الأدبي العالمي، إنما قد يجد فيها المترجم متعة فكرية وتحدياً لغوياً لا مناص من خوض غماره. وعندما تعرفت إلى غونتر غراس شخصياً قبل حوالي 15 عاماً، بدعوة من ناشره «شتايدل»، أمضيت مع حوالي 20 مترجماً جاؤوا من جميع أنحاء العالم أربعة أيام كاملة، كنت أراقب خلالها غراس في كلامه وشرحه التفصيلي لمعاني الكلمات الغامضة وهدوئه وتعامله الحذر واللطيف أيضاً مع المترجمين وخاصة المترجمات القادمات من الدول الإسكندنافية، فكان يخوض معهن أحاديث طويلة، فأدركت بعد ذلك السر وراء هذا الأمر. فغراس كان يشكو من عدم دقة الترجمة وإسقاط عبارات كاملة من روايته «طبل الصفيح»، وخاصة في ترجمتها إلى اللغة الإنكليزية التي قام بها المترجم الأميركي رالف مانهام الذي ترجم أيضاً كتاب «كفاحي» لهتلر. وطلب غراس من ناشره أن ينظم ورشة عمل يشارك فيها الكاتب نفسه والناشر ومحقق أعمال غراس ومساعدوه، بالإضافة إلى المترجمين، لشرح العبارات والصياغات غير الواضحة من أي

بأدنى صدقية في الواقع. وبما أن غونتر غراس كاتب سياسي ملتزم، ولغله آخر الكتاب الملتزمين في ألمانيا بعد الحرب، وخاصة أن الأدباء الذين كانوا محسوبين على اليسار من أمثال فالزر وإنتسنسبيرغر على سبيل المثال، باتوا يتصلون شيئاً فشيئاً من ماضيهم السياسي حتى أصبحوا من المحافظين المقربين من «الحزب المسيحي الديمقراطي» ودوائره، فإننا نحاول أن نتعرض هنا بالتفصيل لاعتراض غراس بأنه كان عضواً في الفرق القومية النازية

المعروفة باسم Waffen-SS (فافن أس) وهي وحدات خاصة مسؤولة عن ارتكاب جرائم وحشية إبان الحرب العالمية الثانية، ومنها قتل الجنود الفارين من المعارك. ونعتقد أننا، باعتبارنا منفيين أيضاً وضحايا للأنظمة العربية القمعية، لا بد من أن نناقش البعد الأخلاقي للأدباء، لا لكي نكون حكماً عليهم، بل لأن هناك ضوابط وقيماً إنسانية مشتركة يجب الالتزام بها، ولأن غراس نفسه كان يتصرف وفق منظومة هذه النظم الأخلاقية، ما جعلنا نختر ترجمته أعماله إلى

